■ الباب الخامس عشر

إيكاروس

THE AUTOBIOGRAPHY OF

MALCOLM X

كلما ازداد عدد المجالات التي مثلت فيها مستر محمد في التلفاز والمذياع وفي الجامعات والأماكن الأخرى ، كلما ازداد عدد الخطابات التي تصلني من أناس استمعوا إليَّ وخمس وتسعون بالمائة من هذه الخطابات كان من أناس بيض فيما أقدر . القليل من هذه الخطابات كان من نوع « عزيزي النيجر إكس» أو تهديداً بالقتل . وقد كشفت لي أغلب هذه الخطابات مخاوف الرجل الأبيض وأهمها اثنان رئيسيان . أول هذه المخاوف كان اعتقاده الخاص أن غضب الله سيحل بهذه الحضارة ويحطمها . وثاني أهم مخاوف الرجل الأبيض كانت صورة الرجل الأسود وهو يعاشر المرأة البيضاء .

كانت نسبة غريبة من خطابات البيض لي تتفق كلية مع تحليل مستر محمد للمشكلة لكنها تخالفه في الحل . كان هنالك تضارب غريب في بعض هذه الخطابات فهي تؤيد مستر محمد ولكنها تتراجع من تعبير « الشيطان الأبيض» فكنت أحاول أن أوضح لهم ذلك في خطبي التالية .

« طالما أننا لا نسمي رجلاً أبيض بعينه بلفظ (شيطان) فإننا لا نعني فرداً أبيض معيناً . إننا نتكلم عن تاريخ الرجل الأبيض الجماعي ونتحدث عن قسوة الرجل الأبيض الجماعية وطمعه وشروره التي جعلته يسلك سلوك الشيطان نحو الرجل غير الأبيض . كل شخص ذكي ، نزيه وموضوعي لن يفشل في الخلاص إلى أن تجارة الرجل الأبيض في الرقيق وأعماله الشيطانية اللاحقة هما السبب

المباشر ليس في وجود الرجل الأسود على أرض أمريكا فحسب ، بل في الحالة المزرية التي يجد الرجل الأسود نفسه فيها هنا . ولن تجد رجلاً أسود واحداً مهما كان ، لم يتضرر شخصيًا وبطريقة ما من أفعال الرجل الأبيض الشيطانية الجماعية ».

وفي كل يوم تقريباً كان يظهر في إحدى الصحف هجوم ما على « المسلمين السود » وبدرجة متزايدة كان الهجوم ينصب على شيء قلته ، «مالكوم إكس الديماجوج (الدهماوي).» كنت أغضب وأنفعل عند قراءة أي هجوم على مستر محمد ولم يكن يهمني ما يقولونه عني . علماء الاجتماع وموظفو الرعاية الاجتماعية حاولوا ذبحي ذبحاً ، خاصة السود منهم لسبب ما ، أما أنا فكنت أعرف السبب وهو أن الرجل الأبيض يتحكم في مرتباتهم الشهرية . فإذا لم أكن قد « شققت المجتمع» في رأيهم فأنا قد أسأت « تقييم الوضع العنصري.» أو كما يقولون بعبارات أخرى « عممت أكثر مما ينبغي» وإذا كنت محقًا في نقطة ما ، فأنا « أحورها وأفسرها بما يناسبني ».

في إحدى المرات أراني أحد الأخوة المسلمين من أعضاء مسجدنا ، وكان يعمل مع المراهقين في أحد مراكز هارلم الاجتماعية ، أراني تقريراً سرياً علمت منه أن أحد كبار موظفي الرعاية الاجتماعية السود الذي أرسل لتقصي الحقائق عن المسلمين السود فكتب كلاماً هرعت معه إلى القاموس ولذلك لم أنسَ منه سطراً واحداً . فلتسمع هذا الكلام :« لقد بسط مالكوم اكس وحور من مكونات ديناميكية شبه ثقافة هارلم الجزئية لتتلاءم مع متطلباته.» من منا بربك يعرف شبه ثقافة هارلم الجزئية أكثر من الآخر ؟ أنا الذي عاش في شوارعها سنيناً أم موظف الرعاية الاجتماعية الأسود النفاج اللاهث وراء المركز العلمي .

لم يكن يهمني ذلك وكان المهم في رأيي هو أن من بين الاثنين والعشرين مليون أسود حظيت نسبة قليلة بالتعليم الجامعي وهذا أحد أولئك المحظوظين ، أحد أولئك « المتعلمين » الزنوج لم يفهم القصد الحقيقي والغرض من التعليم وفائدته . هنا مثال للتعليم الجامد الذي لا يستغل إلا لاستعراض الكلمات الرنانة .

هل تعلم أن هذا واحد من أهم الأسباب التي مكنت الرجل الأمريكي الأبيض من احتواء واضطهاد الرجل الأمريكي الأسود بسهولة ؟ لأن أولئك المتعلمين السود لم يكونوا ، حتى عهد قريب ، يحاولون تطبيق معرفتهم إلا فيما ندر – وأنا مضطر لأن أقول – في البحث والتفكير الخلاق مثلما يفعل البيض ، للارتقاء بأنفسهم وبجنسهم في عالم الرجل الأبيض المادي التنافسي الذي تأكل فيه الكلاب بعضها . لعدة أجيال قادت الطبقة الزنجية « المتعلمة » جماهيرها الزنجية مرددة تفكير

الرجل الأبيض والذي كان طبيعياً لمصلحة الرجل الأبيض .

الرجل الأبيض – دعنا نستوفيه حقه – يستمتع بذكاء وحسن تدبير غير عاديين وعالمه يبرهن ذلك . ليس هنالك من شيء يعجز الرجل الأبيض عن صنعه وأي معضلة علميه تذكرها ، يستطيع الرجل الأبيض حلها . في الوقت الحالي يقوم بحل معضلة إرسال شخص ليستكشف الفضاء الخارجي ويعود سالماً إلى الأرض . لكن ذكاءه يقف عند التعامل مع البشر الآخرين ويتعطل ذلك الذكاء كلية عندما يكون أولئك الآخرون ليسوا بيضاً وعندها تتحكم عواطفه على ذكائه – أنه سيقترف حينها أفعالاً عاطفية من وحي اللحظة يصعب تصديقها لأن عقدة «العظمة البيضاء» متمكنة من نفسيته .

على مَنْ رميت القنبلة الذرية - .. « لإنقاذ حياة أمريكيين ؟ » هل الرجل الأبيض من البلاهة حتى يعتقد أن أهمية ذلك ستفوت على ثلثي سكان العالم من غير البيض ؟ وحتى قبل رمي القنبلة الذرية وهنا في الولايات المتحدة ، ماذا عن المائة ألف مواطن أمريكي من أصل ياباني الذين سيقوا كالبهائم إلى المعسكرات ووضعوا خلف الأسلاك الشائكة خلال الحرب الكونية الثانية ؟ وكم أمريكي من أصل ألماني اقتيدوا خلف الأسلاك الشائكة خلال نفس الحرب ؟ إنهم بيض .

تاريخياً كانت البشرة غير البيضاء تثير وتفضح « الشيطان » الذي هو من طبيعة الرجل الأبيض. ماذا سوى عاطفة شيطانية غشيت ذكاء الرجل الأبيض فمنعته من أن يتوقع أن ملايين من العبيد السود الذين « حُرروا» ثم تلقوا تعليماً محدوداً سيثورون يوماً كمارد مخيف في وسط أمريكا البيضاء ؟ كان ينبغي على عقل الرجل الأبيض الذي حمله لاكتشاف الفضاء أن يقول له أن العبد إذا تعلم فلن يخاف سيده . يعلمنا التاريخ أن العبد المتعلم سيبدأ يسأل نفسه ثم يطالب بالمساواة مع سيده .

في الوقت الحالي وبأكثر من طريقة يعرف الرجل الأسود حقيقة الرجل الأبيض أحسن منه . وكل يوم تزيد معرفة الاثنين والعشرين مليوناً من السود أن ثورتهم ستضر كثيراً بأمريكا الرجل الأبيض سياسياً واقتصاديًّا وطبيعيًّا ، وإلى درجة ما ، اجتماعيًّا ، دعك من صورتها عالمياً .

لم أقصد الابتعاد عن الموضوع بهذا الحديث . كنت أحدثكم عن محاولتي التعامل مع الصحفيين ومذيعي التلفاز الذين ما فتئوا يحاولون طمس تعاليم مستر محمد . صرت أشبه الصحفيين بابن مقرض (حيوان) بشري فهم دائماً يتنسمون ويفتشون ويرشقونني بالسهام محاولين الإيقاع بي ووضعي في موقف حرج في أي

مقابلة . فإذا ما أدلى أحد « قادة » الحقوق المدنية بتصريح لم يعجب جهاز السلطة الأبيض ، كان الصحفيون يأتون إلي في محاولة لإرجاعه إلى الخط المستقيم . على سبيل المثال كان يأتي إليَّ أحدهم ويسألني: « مستر مالكوم إكس ، لقد صرحت أكثر من مرة أنك لا تؤمن بالتظاهرات الجالسة وأساليب الكفاح المماثلة ، فما رأيك في المقاطعة التي يقودها دكتور مارتن لوثر كنج في مونتوجمري ؟ » موقفي من ذلك كان أنه بالرغم من أن « قادة » حركة الحقوق المدنية كانوا يهاجموننا نحن المسلمين ، فهم مازالوا قوماً سوداً ، كانوا بني جنسنا وسيكون من الحماقة لو تركت البيض يخدعونني لأقول شيئاً ضد حركة الحقوق المدنية .

وعندما يسألونني عن المقاطعة في مونتوجمري كنت أعيد عليهم ما قاد إلى ذلك. كانت منستر روزا باركز تركب الحافلة في طريقها إلى منزلها عندما وقفت الحافلة في محطة ما وأمرها السائق الأبيض أن تترك مقعدها ليجلس عليه راكب أبيض ركب (البص) لتوه في تلك المحطة . كنت أقول لهم : « لكم أن تتخيلوا ذلك ! هذه المرأة السوداء الطيبة المثابرة المؤمنة بالمسيحية ، دفعت ثمن تذكرتها من حر مالها وجلست على مقعدها . وفقط لأنها سوداء طلب إليها أن تتنازل عن مقعدها! أنني أقول لكم أنه يصعب عليَّ أنا أحياناً أن أصدق هذه العنجهية من الرجل الأبيض ».

في مرات أخرى كنت أقول : « لا أحد يدري بالضبط كيف قادت هذه الحادثة الصغيرة إلى إشعال غضب زنوج مونتوجمري . هنالك قرون ملأى بأبشع الفظائع ارتكبت ضد الشعب الأسود – اغتصاب ، ضرب ، إطلاق النار عليهم وتعليقهم من الأشجار . لكن كما تعلمون إن ما يحرك التاريخ إنما هو مجرد حوادث تبدو بسيطة وتافهة . هنالك محام هندي مغمور طرد من القطار مرة فامتلأ غيظاً من الظلم حتى لوى ذنب الأسد البريطاني . كان اسمه المهاتما غاندي ».

في مرات أخرى كنت أستخدم حيلاً رأيت المحامين يستغلونها في المحاكم وفي التلفاز إذ كانوا أحياناً يحشرون معلومة لا تقبلها المحاكم أمام المحلفين . (أحياناً أتخيل أنني كنت سأصبح محامياً ناجحاً كما أخبرت مدرسي في الصف الثامن في ميسون بولاية ميشجان ، لقد وددت ذلك ولكنه نصحني بأن أصبح نجاراً .) كنت ألتقط سؤال الصحفي وأرمي في حجره قنبلة كامتداد طبيعي لسؤاله .

« نعم ، سيدي ، أنني أرى أن منطق المقاطعة ينطبق على الجيش والبحرية وسلاح الطيران . لماذا نذهب لنموت في مكان ما للحفاظ على ما يسمى بالديمقراطية التي تُعطي للأبيض المهاجر بعد يوم من وصوله ولا يجدها الرجل الأسود بعد أربعمائة عام من الاستعباد والشقاء في خدمة هذه البلاد ؟ » .

بالنسبة للبيض خمسون مقاطعة محلية خير من أن يفكر اثنان وعشرون مليوناً من الزنوج بالطريقة التي ذكرت . لست بحاجة إلى أن أقول :إن حديثي لم يظهر في الصحف بالطريقة التي قلتها وإذا ظهر إطلاقاً ، كان يحرف ويحور . بعد عدد من المقابلات الصحفية صرت أحس بالصحفيين عندما يقنعون فهم عندها يتوقفون عن إثارة أسئلة معينة .

عندما أطور نقطة قوية في صالحي كنت أرمي طعماً للصحفيين حتى تذكر تلك النقطة في المذياع والتلفاز . كنت أنسى عمداً وكأنها زلة لسان واحشر هنا أو هناك كلمة ما عن « كسب » حديث لحركة الحقوق مثل أن تقوم الصناعات الكبرى بتوظيف عشرة زنوج أو أن تبدأ سلسلة مطاعم في الربح من الزنوج بالقيام بخدمتهم أو أن طالباً أسود انخرط في جامعة جنوبية بدون قوة السلاح الخ . عندما تحدث « زلة اللسان» هذه ، يتلقف مقدم البرنامج الطعم قائلاً « أها ! حقاً ، مستر مالكوم إكس ، لن تستطيع أن تنكر أن هذا كسب لجنسك» .

كنت حينها أرد بسرعة قائلاً « لا يمكن لي أن ألتفت حولي من غير أن أسمع عن كسب أو تقدم ما لحركة الحقوق المدنية . يبدو أن البيض يعتقدون أن على السود أن ينشدوا « هالا لويا » مبتهجين . لقد وضع الرجل الأبيض مديته الطويلة خلف ظهر الرجل الأسود لمدة أربعمائة عام والآن وهو يلوح بها بعد أن سحبها بضع بوصات ، المفروض في الرجل الأسود أن يكون ممتناً لذلك ! لِمَ ؟ إن أقل تحريك للمدية سيترك جرحاً على أقل تقدير . »

وعلى نفس المنوال ، ما أن يصرح مختار بلدة أو رئيس مجلس محلي بافتخار قائلاً أن بلدته « خالية من المشاكل العنصرية » إلا وينقلها البرق وتنشرها وكالات الأخبار ثم يرميها صحفي في وجهي . كنت أرد عليهم بأنهم ليسوا في حاجة لإخباري عن المكان الذي تم فيه ذلك لأن كل ما يعنيه ذلك هو أنها بلدة تكاد تكون خالية من الزنوج وذلك ينطبق على كل بلد في العالم . فلنأخذ انجلترا الديمقراطية ، مثلا ، عندما وصلها مائة ألف من الهنود الغربيين السود ، أوقفت إنجلترا قبول المهاجرين السود . وفنلندا استقبلت سفير الولايات المتحدة الأسود بترحاب ، ولكن دعنا نرى ماذا سيحدث إذا تبعه زنوج كثر إلى فنلندا . أو حتى روسيا ، عندما كان خروتشيف في السلطة هدد بإلغاء تأشيرات عدد من الطلبة الأفارقة الذين قالت تظاهراتهم ضد العنصرية للعالم : وروسيا أيضاً .....

صحافة جنوب الولايات المتحدة كانت تتجاهلني إلا عندما أقول شيئا عن البيض الشماليين والسود من ركاب قطار الحرية الذين يتجهون جنوباً للتظاهر ، حينها تظهر أقوالي في الصفحة الأولى . كنت سميت ذلك « عبثاً» فجيتوات الشمال هنا في

عقر دارهم ملأى بالفئران والصراصير بما يكفي لشغل جيش من ركاب قطار الحرية أولئك . كنت أقول لهم إن لدى نيويورك المتحررة مشاكل عنصرية أكبر من مشاكل ولاية مسيسبي وأنه لو أراد ركاب قطار الحرية الشماليون أن يفعلوا شيئاً فعليهم أن يبدأوا بمنطقتهم وينظروا إلى مشاكل الأحياء القذرة مثل مشكلة الأطفال الصغار الذين يجوبون الشوارع حتى منتصف الليل ومفاتيح الشقق معلقة بخيوط من رقابهم حتى يتمكنوا من الدخول لأن الآباء والأمهات مخمورون أو مدمنو مخدرات ، لصوص أو عاهرات . وبإمكان ركاب قطار الحرية الشماليين أن يشعلوا ناراً أمام مباني المجالس المحلية والبلديات والصناعات وكبرى النقابات للمطالبة بتوظيف الزنوج وإزالة أسماء أكبر عدد منهم من قائمة المساعدات الحكومية التي تعلّم الخمول والتي جعلت الجيتوات تتدهور حتى صارت أسوأ مكان يمكن أن يعيش فيه إنسان . تلك كانت الحقيقة المطلقة ، ولمَ كنت أقولها ؟ لأن أولئك الليبراليين كانوا أكثر ما يستفزني .

نعم كنت أزيل القناع الذي قضى الليبرالي زمناً ينميه ويطوره . الليبراليون الشماليون قضوا دهراً يشيرون بأصابع الاتهام نحو الجنوب من غير أن يعارضهم أحد لدرجة أنهم اليوم يصدمون حينما نعري نفاقهم أمام العالم ليرى أسوأ النفاق . أن حياتي خير مثال لتوضيح ذلك النفاق فأنا لا أعلم شيئاً عن الجنوب ولكنني نتاج هذا الشمالي الأبيض وموقفه المنافق نحو السود .

كان مستر محمد يوفي الجنوبي الأبيض حقه لأنه على الأقل صريح . إنه يظهر أسنانه للرجل الأسود ويقولها له في وجهه أن البيض الجنوبيين لن يقبلوا « الاندماج» أبداً . يمضي الجنوبي الأبيض فيقول أنه سيحارب أقل درجة من الاندماج حتى لو كان اندماجاً رمزيًا . بذلك لا يكون الرجل الأسود تحت تأثير أي وهم عن العدو الذي يتعامل معه .

يمكنك القول عن كثير من البيض الجنوبيين أن معاملتهم كأفراد لكثير من الزنوج الأفراد كانت لا تخلو من طريقة المساعدة الأبوية . إلا أن الشمالي الأبيض كان يبتسم بينما جعبته ملأى بالحيل والكذب عن « المساواة» و « الاندماج » وإذا ما لمست يوماً يد سوداء كتف الرجل الأبيض في كل أمريكا واستدار ذلك الأبيض ليجد ذلك الزنجي واقفاً يقول « وأنا أيضاً ».. فإن ذلك الليبرالي الشمالي سينقبض من ذلك الرجل الأسود وكله خوف وشعور بالذنب مثل أي جنوبي أبيض .

في حقيقة الأمر أن الرجل الأسود الذي حبسه الشماليون البيض في الجيتوات السوداء لهو أخطر وأكثر تهديداً . إن طريقة تركيبة قوى الشمال البيضاء هي أن تتحدث عن الديمقراطية بينما تبعد الزنجي عن الأنظار في مكان ما قريب .

كلمة « الاندماج » نفسها اختراعها ليبراليو الشمال وهي ليست ذات معنى حقيقي . إنني أسألكم الآن عن المعنى الذي تحمله هذه الكلمة عنصريا وهل يمكن تحديده بالضبط؟ حقيقة إن « الاندماج » ليس إلا صورة . إنه غطاء ثعالبي قصد به التشويش على متطلبات الرجل الأسود . هنا في الولايات العنصرية – أو ذات العنصرية الجديدة – الخمسين في أمريكا الشمال ، جعلت كلمة الاندماج ملايين البيض مشوشي الفكر ومستائين يعتقدون أن الرجل الأسود يريد الاختلاط مع الرجل الأبيض بينما تلك حالة قلة من الزنوج فقط تعد على الأصابع فتت « بالاندماج ».

أعني هنا الزنوج القليلين الذين يهربون من اخوتهم السود الفقراء والمسحوقين ، يهربون من احتقارهم لأنفسهم لأن ذلك ما يفعله الهاربون . أعني أولئك الذين لا يشبعون من تمريغ أنوفهم في التراب أمام الرجل الأبيض . تلك القلة المختارة عقولها بيضاء وتكره السود أكثر مما يكرههم الرجل الأبيض .

الحقوق الإنسانية . الاحترام لنا كبشر . ذلك ما تطالب به جماهير السود الأمريكية وتلك هي مشكلتهم الحقيقية . أنهم لا يريدون أن ينكمش البيض منهم وكأنهم مصابون بالطاعون . أنهم لا يريدون أن يحشروا في الجيتو مثل الحيوانات بل ينشدون الحياة في مجتمع حر مفتوح يمشون فيه ورؤوسهم مرفوعة مثل البشر الآخرين رجالاً ونساءً .

ما لا يفهمه كثير من البيض اليوم هو أن السود لا يحبون ويتفادون البقاء مع البيض مما هو ضروري . أن صورة « الاندماج » العامة في أذهان كثير من البيض المغترين جعلتهم يعتقدون أن السود إنما يبغون مشاركتهم أسرَّتهم – وتلك أكذوبة . وهنالك أكذوبة أخرى يصدقها الرجل الأبيض وهي إن أعظم حلم عند الرجل الزنجي هي أن يتمكن من امرأة بيضاء . وكما قال لي أحد الإخوة السود قبل مدة : « هل شممت رائحة أحدهم وهو يعرق ؟ » .

إن جماهير السود تفضل رفقة بني جنسها . وحتى زنوج الطبقة الوسطى الموهومين ماذا يفعلون عندما يعودون إلى بيوتهم بعد حضورهم حفلات الكوكتيل المختلطة ؟ أنهم يرمون أحذيتهم ويبدأون في الكلام عن الليبراليين البيض وكأن هؤلاء الليبراليين كلاب . لا أستطيع أن أقسم لك عما يقوله أولئك البيض حينها فأنا لم أختلِ بهم ، ولكن البرجوازيين الزنوج يعلمون أنني لا أكذب في وصفي لحالهم .

إنني إنما أقول الحقيقة العارية ولن تجدني أمسك لساني عندما تكون الحقيقة في ذهني . إن تبادل الحقيقة العارية كما هي بين الرجل الأسود والأبيض هو ما يحتاجه هذا البلد بشدة لتنقية الجو العنصري من الأفكار الخاطئة والاكليشهات

الفارغة التي امتلأ بها جو هذا البلد لمدة أربعمائة عام .

في كثير من الجماعات السكانية خاصة الصغيرة منها ، خلق الرجل الأبيض لنفسه صورة صاحب النوايا الحسنة نحو الزنوج وفي أي مرة يبدأ زنجي محلي يصرخ بالحقيقة وبأن الرجل الأسود سئم كونه مواطناً من الدرجة الثانية ، مهضوم الحقوق . عند ذلك ستبدأ تسمع من يقول : « من المؤسف أنه بسبب ذلك سينقلب البيض أصحاب النوايا الحسنة على الزنوج ... إن ذلك محزن ... كان الوضع سائراً في تحسن ... ولكننا الآن نجد أن الاتصالات بين الأجناس قد انقطعت ! » .

عم يتحدثون ؟ لم تكن هنالك اتصالات حتى تنقطع وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية لم تكن هنالك جماعة سكنية واحدة في طول أمريكا وعرضها سمع فيها الرجل الأبيض الحقيقة من قادة الزنوج المحليين تعبر عن شعورهم فيما تفرضه الجماعة البيضاء على زنوج تلك المنطقة .

هل تحتاج إلى دليل ؟ حسن إذن ، لماذا فوجئت أمريكا البيضاء وصدمت حينما بدأ الزنوج يثورون على أوضاعهم . لا أحب أن أكون في وضع قائد لجيش من البيض يجهل وضع الزنوج في هذا البلد مثل هذا الجهل .

ذلكم هو الوضع الذي أدى إلى أن يفور الزنوج تدريجياً حتى يصلوا مرحلة الثورة بدون أن ينتبه الرجل الأبيض إلى ذلك . في كل أنحاء أمريكا ظل قادة « الزنوج » المحليون يؤكدون للرجل الأبيض أن كل شيء على ما يرام وتحت السيطرة وبذلك يضمنون بقاءهم « كقادة » وعندما يبغي هذا « الزعيم » حاجة صغيرة لقومه يقول « بعض الناس ، ياريس ، يتحدثون عن حاجتنا إلى مدرسة أحسن» وإذا لم يكن أولئك الزنوج المحليون قد أثاروا مشاكل ، يوافق رجل « البر» الأبيض وتمنح لهم مدرسة وربما بعض الوظائف .

كل البيض في أرجاء أمريكا المختلفة والذين هم جزء من تركيب السلطة البيضاء يعلمون صحة كلامي . أنهم يدركون أن ما وصفته هنا هو النسق الذي تقوم عليه العلاقات « والاتصالات » بين « البيض المحليين الطيبين» وبين الزنوج المحليين في أية مجموعة سكانية صغيرة . ذلك هو النسق الذي خلقه الأناني الأبيض المتسلط وقد صمم بطريقة تجعل الرجل الأبيض يحس « بالنبل» وهو يرمي بالفتات للرجل الأسود بدلاً من أن يشعر بالذنب من طريقة المجموعة المحلية في استغلال الزنوج .

ولكن دعوني أقول شيئاً عن هذا النسق ، هذا النظام الذي خلقه الرجل الأبيض والذي يتعلم فيه الزنوج إخفاء الحقيقة خلف جدار من الابتسامات « ونعم سيدي» وجر الأقدام وحك الرأس . هذا النظام أضر بالرجل الأبيض أكثر مما لو كان

جيش غاز . لماذا أقول ذلك ؟ لأن محصلة كل ذلك كانت أن أصبحت لدى الرجل الأبيض قناعة مطلقة هي أنه « الأفضل». كم مجموعة سكانية صغيرة تجد فيها رجالاً بيضاً لم يكملوا المدرسة الثانوية ينظرون بتعال إلى زنوج خريجي جامعات من بين « زعماء » الزنوج المحليين ، مدراء مدارس ، مدرسين ، أطباء ومهنيين آخرين ؟!

لقد فرض الرجل الأبيض نظامه على غير البيض في جميع أنحاء العالم وذلكم هو السبب الحقيقي في أنه أينما كان المواطنون غير البيض يقيمون ، تجد حكومات الرجل الأبيض نفسها تواجه متاعب ومصاعب .. تزداد عمقاً وكل يوم . دعونا نواجه الحقيقة ! هل سيعي الرجل الأبيض الحقيقة والحقائق عن الأسباب وراء متاعبه أم لا ؟ هذا ما سيحدد بقاءه من نهايته .

إننا نشاهد اليوم ثورة الشعوب غير البيضاء ، الشعوب التي كانت إلى عهد قريب تتجمد خوفاً من بطش الدول البيضاء . ما حدث ببساطة هو أن الشعوب السوداء ، السمراء ، الحمراء ، والصفراء بعد مئات السنين من الاستغلال والمهانة وعقدة النقص المفروضة عليها ، كل هذه الشعوب سئمت من تحمل قدم الرجل الأبيض على رقابها .

كيف تنوي حكومة أمريكا البيضاء أن تقنع الشعوب غير البيضاء «بالديمقراطية » والإخاء – بينما هم يسمعون ويقرأون كل يوم عما يحدث هنا في أمريكا ويرون الصور – التي هي خير من ألف كلمة – للرجل الأبيض وهو يأبى الديمقراطية والإخاء لمواطني أمريكا من غير البيض . إن الشعوب غير البيضاء تعلم جيداً ما قدمه الرجل الزنجي للرجل الأبيض – أحبه وأخلص له ، خدمه واعتنى به ، لقد حارب الزنوج وماتوا دفاعاً عن أمريكا ضد أعدائها من البيض ومن غير البيض . ياله من مخلص هذا الأسود ومع ذلك تفجر فيه القنابل وترسل من خلفه الكلاب ، تفتح فيه خراطيم مياه الإطفاء وتسجن منه الألوف ، يضرب حتى يدمي وترتكب ضده كل أنواع الجرائم .

لا شك أن لهذه المعلومات التي تنتشر وتتجدد كل يوم أمام شعوب العالم غير البيضاء ، دخلاً كبيراً بإحراق عربات السفارات والرمي بالحجارة ومهاجمة مباني السفارات والقنصليات والهتاف « أيها الأبيض ، عد إلى بلدك يا غريب بلدك» ، وبهذا الهجوم على البعثات التبشيرية المسيحية البيضاء وحرق وتمزيق الأعلام .

واضح إذن سبب قولي أن عقدة العظمة المتأصلة في الرجل الأبيض هي التي جلبت له ضرراً أكثر مما قد يجلبه جيش غاز .

على الرجل الأمريكي الأسود أن يركز جهوده لبناء تجارته وصناعته ولبناء

بيوت محترمة لنفسه . ومثلما فعلت الجماعات العرقية الأخرى ، فليقم السود حيثما كانوا وكيفما كان بالشراء والبيع من بني جنسهم ، واستئجار بني جنسهم وبذلك يزيدون من مقدرتهم في الاعتماد على أنفسهم . تلك هي الطريقة الوحيدة التي بها سيلقى الرجل الأسود الاحترام واحترام الذات هو الشيء الوحيد الذي لا يستطيع الرجل الأبيض أن يمنحه للرجل الأسود أبداً . لن يصبح الرجل الأسود مستقلاً أبداً ولن يجد الاحترام كإنسان مساو حقاً لبقية البشر إلا إذا كان عنده ما عندهم وحتى يقدم لنفسه ما يقدمه الآخرون لأنفسهم .

على الرجل الأسود في الجيتوات مثلاً أن يبدأ في تقويم مساوئه المادية والخلقية والروحية . الرجل الأسود في حاجة لأن يبدأ برنامجاً للتخلص من البغاء وإدمان الخمر والمخدرات وأن يرتقي بقيمه .

إن أعداد الزنوج التي تشارك في « الاندماج» بأي درجة أعداد بسيطة لا تتعدى بضعة آلاف وهم أساساً عدد قليل من البرجوازية الزنجية التي ترمي بمالها القليل في فنادق الرجل الأبيض المترفة ونواديه الليلية الأنيقة ومطاعمه الكبيرة الفخمة . إن الرجل الأبيض الذي يرتاد هذه الأماكن لديه المقدرة المالية أما الزنوج الذين ترونهم في هذه الأماكن فليست لديهم المقدرة المالية التي تمكنهم من ارتياد معظمها . كيف يبدو زنجي على حافة الإفلاس وهو يتناول طعام العشاء في أحد هذه المطاعم ويبتسم لرئيس النادلين الذي يملك مالاً أكثر من ذلك الزنجي . هؤلاء الزنوج البرجوازيون يضعون الفوط على حجرهم ويطلبون وجبة من طائر السماني والقواقع بالصلصة – لم ذلك ؟ إن الزنوج لا يحبون القواقع حتى ! إنهم يفعلون ذلك ليبرهنوا أنهم مقبولون من الرجل الأبيض .

النهاية الحقيقية لما يسمى « بالاندماج » إذا فكرت فيها ، هي الزواج المختلط . وأنا أتفق مع البيض الجنوبيين الذين يؤمنون إن الاندماج سيؤدي ، بعد مدة على الأقل ، إلى ازدياد الزواج المختلط . وما فائدة ذلك لأي شخص؟ دعونا نواجه الحقيقة ففي هذا العالم الذي يعادي الملونين لماذا يريد شخص أسود أو أبيض ، رجلاً كان أم امرأة ، أن يعاشر شخصاً من العنصر الآخر .

لقد أعلن البيض الآخرون أكثر من مرة عداءهم لأي أسود في عائلتهم أو في حيهم وما يحس به معظم الزنوج حالياً هو أن العائلات السوداء أكثر عداءً من البيض نحو الزواج المختلط . ولذا ما الذي سيواجه الزواج المختلط سوى عدم الترحاب وعدم القبول ؟ سيكون أصحاب الزيجات المختلطة شاذين في أي مكان يحاولون العيش فيه ومن هذا نخلص إلى أن الاندماج من الناحية الاجتماعية ليس بذي فائدة لأي من الجنسين . الاندماج سيؤدي في النهاية إلى تحطيم الجنس الأبيض ...

وتحطيم الجنس الأسود .

لقد غير « اندماج» الرجل الأبيض مع المرأة السوداء من لون بشرة وخصائص الجنس الأسود في أمريكا وعلى ماذا يبرهن السود أصحاب البشرة الأكثر بياضاً حتى من كثير من البيض ؟ يقولون أن هنالك بأمريكا اليوم من اثنين إلى خمسة ملايين « زنجي أبيض» مقبولين كبيض في المجتمع الأبيض يعيشون في خوف من أن أحد معارفهم السود سيقابلهم يوماً ويكشفهم . تخيل أن يعيش الإنسان أكذوبة كل يوم وتصور شعورهم وهم يسمعون أزواجهم البيض أو زوجاتهم البيض أو حتى أطفالهم البيض وهم يتحدثون عن « أولئك الزنوج ».

أشك أن هناك في أمريكا شخصاً سمع زنوجاً يتحدثون عن البيض بمرارة كالذين سمعتهم أنا . ولكن دعني أقول لك أن أمر الأحاديث عن الرجل الأبيض وأقذعها هي تلك التي سمعتها من الزنوج المقبولين كبيض في المجتمع الأبيض وهم يتعرضون كل يوم للاستماع إلى ما يقوله البيض بين أنفسهم عن الزنوج ، أشياء لا يمكن أن يسمعها الزنجي العادي – ولم لا ؟ قد يصبح هؤلاء الزنوج جواسيس ذوي قيمة في جانب الرجل الأسود إذا ما حدثت مواجهة عنصرية .

وماذا عن « أطفال أوروبا السمر » الذين أصبحوا الآن صبياناً وفتيات وبدأوا في التزاوج وتكوين أسرهم وهم موصومون بالشواذ عنصريًّا ، هل في تجربتهم شيء في صالح «الاندماج ؟ »

« الاندماج » يسمى الاستيعاب إذا كانت المجموعتان من البيض ويحاربه بشدة من يريدون الاحتفاظ بتراثهم ، أنظر كيف طرد الايرلنديون الانجليز من ايرلندة لأنهم كانوا يعلمون أن الإنجليز سيغمرونهم . أنظر إلى فرنسيي كندا وهم يحاربون بشدة للاحتفاظ بشخصيتهم المستقلة . في حقيقة الأمر أن أكبر محصلة مأساوية للاختلاط العرقي وبالتالي إضعاف الشخصية العرقية لمجموعة بيضاء حدثت لليهود في ألمانيا .

قدم اليهود لألمانيا مساهمات أعظم مما قدمها الألمان أنفسهم فهم قد فازوا بأكثر من نصف جوائز نوبل التي فازت بها ألمانيا وكل جانب ثقافي في ألمانيا تجد على رأسه يهودي . نشروا أحسن الصحف وكانوا أعظم الفنانين والشعراء ومؤلفي الموسيقى ومخرجي المسرحيات . ولكن أكبر خطأ ارتكبوه كان أنهم تشربوا قيم المجتمع وأمتصهم ذلك المجتمع . ما بين الحرب العالمية الأولى وصعود هتلر كثر الزواج المختلط وسط اليهود وغير كثير منهم أسماءهم وغير البعض منهم دينه . هجروا دينهم وتراثهم الغني وجذورهم العرقية، تخدروا وقطعوا الأوصال ... حتى بدأوا يفكرون في

أنفسهم « كألمان ».

وفجأة ظهر هتلر وهو يصعد من قاعات الجعة إلى السلطة مع خطبه النارية وحديثه العاطفي ونظريته عن « الجنس ألاري الأعظم» ووجد ضالته في اليهود المستضعفين خادعي النفس ، الذين أصبحوا كبش الفداء لما كانت تعاني منه ألمانيا والشيء الذي يصعب فهمه مع عقولهم اللماحة ، مع كل ما لهم من نفوذ في كل شئون ألمانيا ، وقفوا مشدوهين يتفرجون على شيء لم يكن وليد البارحة ولكنه كان يعتمل بالتدريج – خطة بشعة لاغتيالهم جميعاً .

كان خداعهم لأنفسهم كاملاً لدرجة أنهم بعد ذلك وهم في غرف الغاز كان بعضهم ما زال مشدوهاً ويقول « مستحيل أن هذا يحدث » ماذا لو انتصر هتلر على العالم كما كان ينوي – تلك فكرة يقشعر لها جسد كل يهودي حي اليوم .

لن ينسى اليهود ذلك الدرس أبداً واليوم نجد الاستخبارات اليهودية تراقب أي منظمة للنازية الجديدة . بعد الحرب مباشرة كثفت جماعة الهجانة من مفاوضاتها مع البريطانيين ولكن في هذه المرة كانت عصابة أشتيرن تطلق النار على البريطانيين . جعل ذلك البريطانيين يهادنونهم بل يساعدونهم على انتزاع فلسطين من العرب ، أصحابها الحقيقيين ، وبعد ذلك أنشأ اليهود إسرائيل كوطن لهم وذلك هو الشيء الذي يحترمه كل جنس في العالم ويفهمه .

قبل مدة ليست بطويلة تعاطى الرجل الأسود في أمريكا جرعة أخرى من ذلك المهدئ المخدر الخداع الذي يسمى بالاندماج وأسمي أنا تلك الجرعة المهزلة الكبرى في واشنطن . فكرة المسيرة الكبرى في واشنطن نبعت أصلاً من ذهن أ. فيليب راندولف من نقابة حمالي عربات النوم في السكك الحديدية . وكانت هذه الفكرة ، فكرة المسيرة ، تحوم حول الأذهان بين الزنوج لمدة عشرين عاماً قبل ذلك . فجأة ومن وحي اللحظة انتشرت الفكرة . بدأ العمال الزنوج في الريف الجنوبي ، والزنوج في المدن الصغيرة وفي جيتوات الشمال، وحتى الآلاف من نوع العم توم ، بدأوا يتحدثون عن « المسيرة ».

لم يجمع الزنوج على شيء منذ انتصار جو لويس في الملاكمة ، مثل إجماعهم على فعل شيء ما هذه المرة ، كان بعضهم يتحدث عن الذهاب إلى واشنطن بأية وسيلة يستطيعون – في عربات مهلهلة قديمة ، بالحافلات ، بسؤال أصحاب السيارات ، وحتى مشياً إذا اضطروا لذلك . كانت الفكرة أن يلتقي آلاف الأخوة السود في واشنطن ويستلقوا على الأرض – في الشوارع ، في ممرات الطائرات في المطار وأمام المباني الحكومية – مطالبين الكونجرس والبيت الأبيض بعمل شيء ملموس في مجال الحقوق المدنية .

كان ذلك شعوراً عامًّا بالمرارة ، مندفعاً ، غير منتظم وبدون قيادة ومعظم أولئك كان من الشباب ، يتحدى مهما كانت العواقب ، لأنه سئم ومل من قدم الرجل الأبيض فوق رقابه . ومن حق الرجل الأبيض أن يقلق ويخاف فقد كان من السهل أن تشتعل هذه الجماهير من شرارة عاطفية تنطلق من مكان ما . كانت الحكومة تعرف أن آلاف الزنوج المتململين الغاضبين بإمكانهم ليس إيقاف العمل في واشنطن فحسب ، بل حرقها أيضاً .

بسرعة استدعى البيت الأبيض كل « زعماء » الحقوق المدنية المهمين من الزنوج وطلب إليهم أن يوقفوا خطة المسيرة . أجابوا بصراحة أنهم لم يبدأوها وأن ليس لهم عليها من سلطان – الفكرة من أساسها حركة عامة من وحي اللحظة وبلا تنظيم أو قيادة بكلمات أخرى كانت فتيل بارود أسود .

وللذين يدرسون الكيفية التي بها يسلب « الاندماج » حركة الرجل الأسود حيويتها ، أمامهم درس مهم في ذلك .

أعلن البيت الأبيض في حملة دعائية عالمية كبيرة أنه « صدق على» ، « أيد» و «رحب» بالمسيرة في واشنطن . أما ما كانت جمعيات الحقوق المدنية تفعله في ذلك الوقت فهو الشجار العلني حول التبرعات وقد نشرت صحيفة نيويورك تايمز القصة – اتهمت « المنظمة القومية للنهوض بالملونين » المنظمات الأخرى المشتركة بأن تلك المنظمات قد جذبت جل التبرعات وتركت لها الفتات بينما تقوم منظمة النهوض بالملونين بالبحث عن المحامين ودفع أجورهم وكذلك دفع الغرامات عن المتظاهرين الذين يتعرضون للسجن .

كانت قصة المسيرة مثل فيلم سينمائي وفي المشهد التالي التقى « الستة الكبار» من بين «زعماء» حركة الحقوق المدنية الزنوج في مدينة نيويورك ومعهم مدير مؤسسة خيرية كبرى . تم إبلاغ أولئك الزعماء أن الشجار العلني حول المال أضر بقضيتهم وأن هنالك ثمانمائة ألف دولار خصصت « لقيادة » الحقوق المدنية الموحدة التي كونها « الستة الكبار» بسرعة .

ما الذي حقق وحدة السود في لحظة واحدة ؟ أموال الرجل الأبيض . وما هي الشروط الملحقة بتلك الأموال ؟ تقبُل النصيحة . لم يكن ذلك كل ما في الأمر بل كانت هنالك وعود بمبالغ أخرى في المستقبل بعد المسيرة ... إذا سارت الأمور على ما يرام .

المسيرة الأصلية « الغاضبة » بدأت تتغير كلية .

وأظهرت الحملة الدعائية العالمية الكبرى « الستة الكبار» وكأنهم قادة المسيرة على واشنطن . كان ذلك نبأ غريباً لجماهير السود الغاضبة الذين كانوا يفورون

ويزدادون غضباً كل يوم وهم يخططون للمسيرة وربما افترض بعضهم أن هؤلاء «الزعماء» المشهورين يؤيدون وسينضمون للمسيرة لا أن يقودوها .

تلا ذلك مباشرة دعوة أربع شخصيات بيضاء عامة للانضمام إلى المسيرة : كاثوليكي ، يهودي ، بروتستاني وأحد قادة العمال . وبذلك أصبحوا « العشرة الكبار» بدلاً من ستة وبدأ الإعلام يوحي بأن « العشرة الكبار» سيشرفون على ويتحكمون في المسيرة . بدأت الشخصيات البيضاء الأربعة تهز رأسها موافقة وبدأ الخبر ينتشر بين الليبراليين من الكاثوليك واليهود والبروتستانت والعمال أن في الانضمام إلى المسيرة ديمقراطية . فجأة بدأ البيض الذين كانوا يخافون من المسيرة يعلنون أنهم سينضمون إليها .

فجأة وكأنما لمسهم مس كهربائي بدأت البرجوازية الزنجية ، من يسمون «بالطبقة الوسطى» و « الطبقة العليا» الذين كانوا يعارضون المسيرة وينتقدون تفكير العامة فيها .

لكن البيض سيسيرون الآن .

بدأ أولئك الزنوج المفتونون بالاندماج عمليًا في تزاحمهم بحثاً عن مكان يسجلون فيه أسماءهم كمشتركين . كان من الممكن أن يطأوا في تزاحمهم بعض الزنوج المسحوقين العاطلين الجائعين . مسيرة « الجماهير السوداء الغاضبة » تحولت فجأة إلى موضة وكأنها سباق خيول في كنتكي وأصبحت عند الباحثين عن المركز الاجتماعي رمزاً لذلك المركز . « هل كنت هنالك ؟ » هذا سؤال نسمعه حتى اليوم .

أصبحت نزهة ، رحلة خلوية .

أي عربة مكدسة بزنوج غاضبين مغبرين يتصببون عرقاً كانت ستضل طريقها في صبيحة المسيرة وسط الطائرات المؤجرة خصيصاً والحافلات مكيفة الهواء وعربات القطارات . وما قصد له أن يكون موجة غضب تحول إلى سيل هادئ كما وصفته إحدى الصحف الإنجليزية بدقة .

تحدث عن « الاندماج» ماشئت ، فقد أصبحت المسيرة مثل الملح والفلفل الأسود ولم يُترك جانب منها خارج السيطرة . صدرت التعليمات للمتظاهرين الا يحضروا لافتات فقد تم إمداد ذلك . طلب إلى الجميع أن ينشدوا أغنية واحدة معينة : « أننا سننتصر » أخبروهم كيف يصلون واشنطن وأين ومتى وأين يتجمعون ومكان بداية المسيرة وطريقها الذي عليهم أن يسلكوه . كما وضعت نقاط للإسعاف في أماكن إستراتيجية بل أنهم أخبروهم أين يمكن أن يغمى عليهم .

نعم كنت هنالك وشاهدت تلك المهزلة . من منكم سمع بثوريين ينشدون في تناسق « إننا سننتصر يوماً ما » وهم يتعثرون في السير ويتمايلون ذراعاً في ذراع مع

نفس الناس المفترض أن يثوروا عليهم ؟ من منكم سمع بثوريين غضبى يهزون أرجلهم في مياه الينابيع في الحدائق العامة مع أعدائهم ينشدون الأناشيد ويعزفون الجيتار مع خطب مثل « إن لدي حلماً ؟ » .

كل ذلك بينما الجماهير السوداء في أمريكا عاشت ومازالت تحيا كابوساً .

نفذ أولئك الثوريون الغضبى التعاليم إلى النهاية : عودوا مبكرين . ومع كل تلك الألوف المؤلفة من الثوريين الغضبى لم يقض الليل في واشنطن بعد المسيرة إلا عدد يسير لدرجة أن اتحاد فنادق واشنطن سجل نقصاً مكلفاً في شاغلي الغرف الخالية .

هوليود نفسها لم تكن لتتفوق على مثل ذلك الإخراج .

في استفتاء صحفي تم بعد ذلك لم يغير أي سناتور أو عضو كونجرس كان يعارض الحقوق المدنية ، موقفه . ماذا كان متوقعاً على أية حال ؟ كيف لنزهة مختلطة عمرها يوم أن تسكت ممثلي العنصرية التي تغلغلت في نفس الرجل الأبيض لأربعمائة عام . ومجرد أن ملايين ، بيضاً وسوداً ، صدقت هذه الكذبة الكبرى دليل على اهتمام هذا البلد بالمظاهر والبحث عن المخرج وبسطحية تفكير الكثيرين ، بدلاً من التعامل بواقعية مع مشاكل البلد الحقيقية ذات الجذور الضاربة في الأرض .

كل ما فعلته المسيرة على واشنطن هو أنها خدرت الزنوج لفترة . وكما هو محتم وضح للزنوج بعد مدة أنهم خدعوا بسهولة مرة ثانية من الرجل الأبيض . وكان لابد أن يعود غضب الرجل الأسود إلى الاشتعال وبدرجة أشد هذه المرة وهنا بدأت المدن الأمريكية تنفجر واحدة إثر أخرى في ذلك « الصيف اللاهب الطويل » عام ١٩٦٤ ، بقلاقل عنصرية لم يشهد لها مثيل من قبل .

قبل شهر من مهزلة واشنطن تلك ، كتبت صحيفة **نيويورك تايمز** تقول عني أنني ثاني متحدث مطلوب في الكليات والجامعات الأمريكية . المحاضر الوحيد الذي يأتي قبلي كان السناتور باري جولدوتر .

أعتقد أن ما قاد إلى شعبيتي في الجامعات هو كتاب د. لنكون « **المسلمون السود في أمريكا** » فقد أصبحت قراءته مفروضة في كثير من المناهج في الجامعات . تلى ذلك مقابلة صحفية طويلة وصريحة معي نشرتها مجلة **بلاي بوي** الواسعة الانتشار في الجامعات . بعد قراءة الكتاب ثم المقابلة الصحفية تطلع كثير من الطلاب لرؤية هذا « المسلم الأسود الناري ».

عند نشر استفتاء صحيفة **نيويورك تايمز** عن المتحدثين في الجامعات كنت قد تحدثت مسبقاً في محاضرات عامة في أكثر من خمسين جامعة مثل براون ،

هارفارد ، ييل ، كولومبيا ورتجرز من جامعات الآيفي المشهورة وأخريات في عرض أمريكا . وفي هذه اللحظة لدى دعوات للتحدث في جامعات كورنيل وبرنستون ودزينة أخريات وسأذهب حينما يسمح وقتي ويناسبهم الميعاد . ومن بين جامعات السود تحدثت في جامعة أطلانطا وجامعة كلارك في أطلانطا وجامعة هوارد في واشنطن د. س. وعدد آخر من الجامعات الصغيرة .

أكثر من أحب من المستمعين بعد السود هم طلاب الجامعات وكثيراً ما كانت فترة الحديث في الجامعات تمتد من ساعتين إلى أربع ساعات وغالباً فوق الوقت المحدد . تحد ، استفسار ، سؤال ، سؤال ، هجوم ، ونقد يوجه لي من العقول الموضوعية الحية الباحثة عن الحقيقة بين طلاب الدراسات الجامعية والعليا وأساتذتهم . كانت المحاضرات في الجامعات دائماً تبهجني وتساعدني في زيادة تعليمي . لم أقدم محاضرة في جامعة إلا وتعلمت منها شيئاً يساعدني في تحسين عرضي ودفاعي عن تعاليم مستر محمد . أحياناً كنت أدخل القاعة لأشارك في ندوة أو نقاش لأجدها تزدحم بالخلق الذين أتوا ليستمعوا إلي وأنا أواجه وحدي ستة أو ثمانية ما بين أستاذ وطالب – رؤساء أقسام علمية مثل علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والتاريخ واللاهوت وكل منهم يصوب أسهمه نحوي .

في بداية الجلسة كنت أواجههم بمثل هذه الجملة الافتتاحية : « أيها السادة ، لقد أكملت الصف الثامن في مدينة ميسون بولاية ميشجان ومدرستي الثانوية كانت جيتوات روكسبري السوداء في ولاية ماساتشوستس . تعليمي الجامعي تم في شوارع هارلم والماجستير من السجن . علمني مستر محمد ألا أخاف من منطق أي رجل يحاول أن يدافع عن أو يبرر جرائم الرجل الأبيض ضد الرجل الأسود – خاصة الرجل الأبيض والرجل الأسود هنا في أمريكا الشمالية ».

كانت وكأنها معارك سلاحها المنطق والفلسفة وعراك الأفكار شيء جد مثير . وصلت درجة أستطيع معها جس نبض المستمعين . وقد تحدثت مع من يتكلمون في المحاضرات العامة وأخبروني أن هذه الموهبة طبيعية عند من لهم ملكة « جذب الجمهور» الذين بإمكانهم الوصول إلى قلوب الناس وهزهم وهي ملكة كالرادار النفسي . وكما يحس الطبيب بقوة القلب بجس أصبعه على النبض ، كنت أثناء الحديث أشعر بردة فعل المستمعين لحديثي .

بإمكاني أن أتكلم معصوب العينين وبعد خمس دقائق أخبرك إذا كان الجمهور المستمع أمامي أبيض صرفاً أم أسود صرفاً إذ أن لكل منهما أثر مختلف على المتحدث . الجمهور المستمع الأسود يشعرك بدفء عاطفته وبالنسبة لي يكاد أن يكون له تناغم موسيقي حتى وهو صامت . كذلك أستطيع في فترة النقاش بعد

المحاضرة أن أتعرف وأنا معصوب العينين على الأصل العرقي لصاحب السؤال وأسهل أولئك بالنسبة لي هما اليهودي بين أي مجموعة مستمعين والبرجوازي الزنجي وسط جمهور مختلط .

أتعرف على اليهودي من سؤاله أو تعليقه ونقده لحديثي لأنه دائماً ومن بين كل الأجناس ينصب تفكيره واهتمامه حول مصلحته ومصالح قومه أكثر من أي جنس آخر . اليهودي عادة شديد الحساسية بمعنى أنك لا تستطيع أن تذكر كلمة يهودي بدون أن تتهم معاداة السامية وعندي إن اليهودي قد يكون طبيباً ، تاجراً ، ربة بيت أو طالباً أو ما شاء ولكنه دائماً يفكر كيهودي .

حساسية اليهود الزائدة شيء مفهوم لي بالطبع فهم عانوا لمدى ألفي عام الاضطهاد الديني والشخصي الذي كان في حدة اضطهاد البيض لغير البيض . لكني أعرف أن يهود أمريكا الخمسة مليون ونصف مليون (مليونان منهم متركزون في نيويورك) ينظرون للموضوع من الناحية العملية وحتى بدون أن يدروا : تركيز الحقد العنصري على الزنوج يبعد عن اليهود كثيراً من نار الحقد التي كانت ستصيبهم لولا وجود الزنوج .

لنأخذ مثالاً لما أتحدث عنه – في كل جيتو أسود يمتلك اليهود أكبر المتاجر والأعمال وعند نهاية كل يوم يغادر أصحاب هذه الأعمال هذه الجيتوات محملين بحصيلة اليوم من أموال الزنوج الشيء الذي يفقر هذه الأحياء . ولكني ما قلت هذه الحقيقة المطلقة إلا وقام من بين جمهور المستمعين من يتحدى حديثي أو يتهمني يهودي بمعاداة السامية . لِمَ ؟ أراهن بأنني أخبرت خمسمائة متحد من ذلك النوع أن اليهود كمجموعة لن يقفوا مكتوفي الأيدي يتفرجون على أقلية أخرى تمتص موارد أحيائهم بطريقة منظمة . كنت أقول لهم: إن قولي الحقيقة لا يعني أنني أعادي السامية ، فقط أعادي الاستغلال .

قد يستغرب الليبرالي الأبيض عندما يعرف أنه لم يحدث مطلقاً أن تحدى أحد من المستمعين كلامي أو دافع عن الرجل الأبيض عندما يكون جمهور المستمعين أسود صرفاً وحتى إذا كان من بينهم برجوازيون سود أو سود من المفتونين « بالاندماج ». كل الزنوج يتفقون فيما بينهم على جرائم الرجل الأبيض . قد تنقصهم التفاصيل كالتي عندي ولكنهم عالمون بالصورة العامة .

ولكن دعوني أقول شيئًا له أهمية خاصة : نفس البرجوازيين الزنوج الذين لن يهبلون بأنفسهم أبداً بالدفاع عن الرجل الأبيض وسط الزنوج ، راقب هؤلاء الزنه عندما يكون جمهور المستمعين مختلطاً ومحبوبهم مستر شارلي (الرجل الأبيض

يسمع ما يقولون . ليتك سمعتهم يهاجمونني ، ويحاولون تبرير جرائم الرجل الأبيض والعفو عنها – مثل هؤلاء كادوا أن يجعلوني أخالف أهم قاعدة عندي أكثر من مرة ، ألا أنفعل وأترك العاطفة تسيطر علي – كنت أحياناً أشعر بأن علي أن أترك المنصة لأنزل واستعمل العنف مع بعض مغسولي الدماغ هؤلاء ، أدوات الرجل الأبيض ، ببغاوات وألاعيب . في محاضرات الجامعات انتهجت وطورت أسلوباً لإحراجهم كأن أقول : « لابد أنك طالب قانون ، أليس كذلك ؟» وحينها سيجيبون بلا أو نعم فأرد أنا قائلاً : لقد ظننتك ذلك لأنك تدافع عن الرجل الأبيض أكثر من دفاعه عن نفسه ».

في إحدى الجامعات ذات مرة كدت أن أفقد أعصابي مع أحد أساتذتها من حملة الدكتوراه السود « رموز الاندماج» ، لن أنسى أبداً أنه أثارني لدرجة لم أعد معها أستطيع الرؤية بوضوح . على الرغم من أن أهلي الاثنين والعشرين مليون أسود المحرومين من التعليم بحاجة إلى أية عقول مدربة ، كان هو واقفاً كذبابة وسط الزبدة بين « زملائه » البيض محاولاً أن يجهز علي . كان يجادل ويردد أنني لست إلا ديماجوجي انقسامي وعنصري عكسي . كنت أحك رأسي لأطعنه في الصميم وأخيراً رفعت يدي فتوقف عن الحديث وسألته « هل تعلم بماذا ينادي العنصري الأبيض حملة الدكتوراه السود ؟» أجاب بشيء مثل « أعتقد أنني لست على علم بذلك » ، بتلك الطريقة المهذبة المتحذلقة في الكلام . رميت عليه بالكلمة إياها عالياً : « نيجرا» .

التحدث في الكليات والجامعات بتلك الطريقة كان ذا فائدة لأمة الإسلام ، لأن أعظم عقول الرجل الأبيض الشيطان يتم إعدادها وصياغتها في الكليات والجامعات . كنت أرفع تقاريري لمستر محمد عن ذلك بانتظام ولكن لسبب ما لم أدرك كنهه إلا مؤخراً جداً ، لم يكن مستر محمد يريد لي أن أتحدث في الجامعات والمعاهد .

علمت بعد ذلك بمدة ومن أبناء مستر محمد أنفسهم ، أنه كان يغار مني لأنه أحس بعدم مقدرته على الحديث في الجامعات . لكنني على أية حال وباسم مستر محمد كنت أجد أولئك المستمعين أصحاب الذكاء العالي ، متفتحي العقل موضوعيين في استجابتهم للحقيقة العارية الخام التي كنت أطرحها أمامهم .

« المرة بعد المرة شاهد السمر والحمر والصفر من أجناس هذا العالم وعانوا من عجز الرجل الأبيض عن فهم نداء الروح البسيط . الرجل الأبيض أخرس فيما يختص بالمعاناة الكاملة للإنسانية وكل صباح تطلع علينا صحفه وهي تحمل في صفحاتها الأولى صور العالم الذي خلقه .

حكم الله وغضبه قريب من الرجل الأبيض الذي يتعثر ويعيش في الظلام

الروحي والشر . أنظروا ، لقد بقى في العالم اليوم أمتان عملاقتان بيضاوتان ، أمريكا وروسيا وخلف كل منهما أمم تابعة قلقة لا تثق في أي منهما . وتحاول أمريكا أحياء الأمم البيضاء الأخرى مثل فرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال الذين يضعفون بانتظام بينما الدول الأفريقية والآسيوية تستعيد أراضيها .

أمريكا تدعم ما تقدم من سمعة وقوة لبريطانيا التي كانت عظمى يوماً ما . لقد غربت الشمس إلى الأبد على المستعمر المقيم ذي الشوارب الكثة وقبعة اللب الجالس يحتسي الشاي مع سيدته الرقيقة في المستعمرات غير البيضاء التي نهبها المستعمرون بانتظام من كل غال . اليوم تعيش الأسرة البريطانية المالكة ونبلاؤها مما يدفعه السواح الذين يزورون القلاع البارونية ومن بيع الهدايا التذكارية والروائح والأوتوجرافات والألقاب وحتى من بيع أنفسهم .

« العالم كله يدرك أن الرجل الأبيض لن يبقى إذا ما قامت حرب كونية ثالثة وإذا ما ضغط أي من العملاقين البيضاوين الزر ، ستنتهي الحضارة البيضاء . ما نراه اليوم هو أن ما يربط الأمم حالياً هو اللون وليس المذاهب والأيدولوجيات . هل هي صدفة أن تتقارب روسيا وأمريكا من بعضهما البعض في نفس الوقت الذي يزور فيه الصينيون أقطاراً أفريقية وآسيوية ؟

« لم يترك تاريخ الرجل الأبيض الجماعي بديلاً أمام الأمم غير البيضاء سوى أن تتعاون وتقترب من بعضها البعض . وكالعادة ليس لدى الرجل الأبيض الشرير الشجاعة والخلق القويم اللذان يجعلانه يتخلص من عنجهيته . أنه يحاول حالياً شراء صداقة الشعوب غير البيضاء ويسعى كعادته ليخفي سجله التاريخي . ليس لديه التواضع الذي يجعله يعترف بجرمه أو أن يكفر عن خطاياه . لقد حرف الرجل الأبيض رسالة الحب البسيطة التي عاشها وعلمها عيسى الرسول وهو يمشي في هذه الأرض » كان المستمعون يندهشون وهم يسمعونني أتكلم عن المسيح فكنت أشرح لهم أننا نحن المسلمين نؤمن بعيسى كرسول وأنه واحد من أهم ثلاثة رسل في الإسلام – مع محمد وموسى وأن بمدينة القدس مقامات بناها المسلمون ليسوع المسيح . كنت أشرح لهم أننا نؤمن أن المسيحية اليوم لا تباشر ما نادى به المسيح وأشير لهم دائماً إلى أن بيلي جراهام (داعية مسيحي) فرق ما بين الاثنين عندما تحدوه في أفريقيا إذ قال : « إنني أؤمن بالمسيح وليس بالمسيحية .»

لن أنسى أبداً تلك الطالبة الجامعية الشقراء في إحدى جامعات نيو إنجلاند . يبدو أنها ركبت الطائرة مباشرة بعد طائرتي المغادرة إلى نيويورك وعرفت مكان مطعم المسلمين وكنت موجوداً عندما حضرت . كان مظهرها ولكنتها وملابسها يدلون على أن أصلها من أعماق الجنوب وأنها من أسرة بيضاء ثرية . في تلك الجامعة

ذكرت لهم أن الرجل الأبيض الشرير في الجنوب كان يستعمل ويستغل حتى نساءه . لقد أقنع امرأته أنها أطهر من غرائزه الحيوانية . بتلك الطريقة « النبيلة » خدع امرأته حتى تغمض عينها عن تفضيله الواضح للمرأة السوداء الحيوانية وبذلك جلست « السيدة الرقيقة » تتفرج على الأطفال الهجن الصغار في مستعمرتها بألوانهم المختلفة والذين خرجوا من ظهر أبيها وزوجها وأخيها وابنها . قلت لهم في تلك الجامعة أن جريمة الرجل الأبيض تشمل معرفته بأنه بكراهيته للزنوج يكره ويرفض وينكر دمه ولحمه .

المهم أنني لم أر أبداً من بين الذين سمعوني في أي مكان من تأثر بالحديث مثل تلك الطالبة البيضاء دقيقة الجسم . سألتني في وجهي : « ألا تؤمن إطلاقاً بأن هنالك بيضاً طيبين ؟» لم أرد جرح مشاعرها فقلت لها « أن ما يهمني هو أفعال الناس يا فتاة وليس كلماتهم . »

هتفت قائلة : « هل هنالك شيء أستطيع أن أفعله؟» أجبتها بالنفي فانفجرت باكية وجرت خارجة في شارع لينوكس ثم ركبت عربة أجرة .

في كل مرة أذهب إليه في شيكاجو أو فينكس كان مستر محمد يغمرني بتأييده لي وثقته فيَّ وعندما ذهب للعمرة في مدينة مكة المقدسة جعلني مسئولاً عن شئون أمة الإسلام . كنت أؤمن به بعمق وبشدة جعلاني على استعداد لأن أرمي بنفسي أمامه لحمايته من أي اعتداء .

لكن سنحت لي فرصة في أحدى المرات جعلتني أن هنالك شيئاً ما ، شيئًا واحداً أعظم من توقيري لمستر محمد .

تلك كانت شدة توقيري له .

دعيت مرة لأتحدث في منتدى كلية القانون بجامعة هارفارد . نظرت من الشباك عندما اكتشفت فجأة أنني أنظر في اتجاه الشقة التي كانت بمثابة مخبأ لنا أيام السرقة واللصوصية . هزني ذلك كالموج ومرت بذهني صور أيام الرذيلة عندما كنت أعيش كالحيوان وأفكر كالحيوان .

غمرني الوعي بالدرجة التي انتشلني فيها الإسلام من الوحل وأنقذني من مصير محتوم : مجرم مدفون في قبر أو ، إذا كنت حياً ، سجين قديم تملأ نفسه المرارة في السابعة والثلاثين من عمره يرزح في السجن الفدرالي أو في مستشفى المجاذيب . أو على أحسن الفروض كنت سأكون أصهب ديترويت العجوز يلهث ويسرق ما يكفي أوده ليخدر عقله بينما صغار الزعران القساة ينظرون إليَّ كصيد سهل مثلما كنت أفعل وأنا في سنهم .

إلا أن رحمة الله قادتني إلى نور الإسلام الذي رفعني من الطين والعفن في عالم

متعفن مهترئ .

وها أنا أقف بوصفي المتحدث الرئيسي في ندوة في هارفارد .

فجأة لمعت في ذهني قصة من الميثولوجيا الإغريقية كنت قرأتها في السجن .

كان صبي يدعى إيكاروس . هل تذكرون القصة ؟

صنع والد إيكاروس بعض الأجنحة وألصقها بالشمع وقال لابنه : « أنصحك بألا تطير عالياً بهذه الأجنحة » وهو يطير هنا وهناك أعجب الطيران إيكاروس وأعجب بنفسه حتى ظن أنه يطير بفضل من ذاته ثم بدأ يطير عالياً فأعلى إلى أن أذابت حرارة الشمس الشمع الذي يلصق الجناحين . وكما طار وقع إيكاروس على الأرض بشدة .

وأنا أقف عند النافذة في هارفارد عاهدت نفسي في صمت بأنني لن أنسى أبداً أن أي جناحين أملكها ، إنما وضعتهم في بدني ديانة الإسلام . تلك حقيقة لم أنساها قط ولو للحظة واحدة .

مالكوم إكس
يتحدث في
منتدى كلية
القانون
لجامعة هارفارد

مالكوم يتحدث الى الطلاب السود في جامعة لونغ ايلاند